(الباب التاسع عشر) حقيقة السخاء والجود والشح والبخل *(الباب العشرون)* فضيلة الجود وذم البخل *(الباب الحادي والعشرون)* انواع الجود والجود به

(الفصل السابع في ذكر الافعال)

(الباب الاول) أنواع الافعال *(الباب الثاني)* الفرق بين الفعل والعمل والصنع *(الباب الثالث)* أنواع الصناعات *(الباب الرابع)* الافعال الارادية وغير الارادية *(الباب الخامس)* ما يستحق به من الافعال اللوم وما لا يستحق به ذلك *(الباب السادس)* الاسباب التي يمكن نسبة الفعل اليها

(الفصل الاول في أحوال الانسان وقواه وفضيلته وأخلاقه وفيه أبواب)

(الباب الاول مثل أهل الدنيا ومارشحوا له)

الانسان في هذه الدار كما قال علي رضي الله عنه الناس سفر والدنيا دار ممر لا دار مقر وبطن أمه مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازله وشهوره فراسخه وأيامه امياله وانفاسه خطاه يسار به سير السفينة براكبها كما قيل

رأيت أخا الدنيا وان كان حافظا * اخا سفر يسري به وهو لا يدري

وقد دعي الى دار السلام كما قال الله تعالى لهم دار السلام عند ربهم وقال تعالى والله يدعو الى دار السلام وتوجه به اليها نحو أشرف الزهرات وألذ الثمرات جنات تجري من تحتها الانهار بل الى جنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين لكن لما كان الطريق اليها مضلة مظلمة قد استولى عليها اشرار ظلمة جعل الله عز وجل لنا من العقل الذي ركبه فينا وكتابه الذي أنزله علينا نورا هاديا ومن عبادته التي أمرنا بها حصنا واقيا فقال في وصف نوره الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله

الامثال للناس بفعل المصباح مثلا للعقل والمشكاة مثلا لصدر المؤمن والزجاجة لقلبه والشجرة المباركة وهي الزيتونة للدين وجعلها لا شرقية ولا غربية تنبيها على انها محروسة عن التفريط والافراط كما قال ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم والزيت للقرآن وبين ان القرآن مع العقل مد الزيت المصباح وانه يكاد يكفي لوضوحه وان لم يعاضده العقل ثم قال نور على نور أي نور القرآن ونور العقل وبين انه يخص بذلك من يشاء وقال في وصف ما جعله الله تعالى للناس من الحصن ان عبادي ليس لك عليهم سلطان أي المخلصين بعبادتي فمن لم يقم برعاية نوره وحماية حصنه عمه في دجاه وتمكنت من استغوائه عداه كما قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون فلم يتزود من دنياه زاده كما أمره بقوله تعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى وحانت رحلته فيسترجع منه ما أعسر من جلده وذات يده فيتحسر حين لا ينفعه تحسره ويقول يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ويقول هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل فحينئذ لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا وأيضا فان الانسان من وجه في دنياه حارث وعمله حرثه ودنياه محرثه ووقت الموت وقت حصاده والآخرة بيدره ولا يحصد الا ما زرعه ولا يكيل الا ما حصده ولهذا قال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من خلاق من نصيب وكما ان في البيدر مكاييل وموازين وأمناء وحفاظا ومشاهدين وكتابا كذلك في الآخرة مثل ذلك كما قال تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين وقال ان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقال وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وكما ان في البيدر تذرية وتمييزا بين النقاوة والحطام فكذلك في الآخرة تميز بين الحسنى والآثام كما قال الله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون وقال في أعمال الكفار مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء وقال وقدمنا الى ما عملوا من عمل

فجعلناه

فجعلناه هباء منثورا فمن عمل للآخرة بورك في كيله ووزنه وجعل له زاد الآخرة كما قال تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ومن عمل لدنياه خاب سعيه وبطل عمله كما قال تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون فاعمال الدنيا كشجرة الخلاف بل كالدفلى والحنظل في الربيع ترى غض الاوراق حتى اذا حان حين الحصاد لم ينل طائلا واذا حضر جنانه البيدر لم يغد نائلا ومثل أعمال الآخرة كشجرة الكرم والنخل والمستقبح المنتظر في الشتاء فاذا حان وقت القطاف والاجتناء افادتك زادا وادخرت منه عدة وعتادا والى نحو هذا أشار الله تعالى بقوله ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار ولما كانت زهرات الدنيا رائقة الظاهر خبيثة الباطن نهى الله تعالى عن الاغترار بها فقال ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى والله تعالى يؤيد بفضله من يشاء وهو الباري

(الباب الثاني ماهية الانسان وكيفية تركيبه)

الانسان مركب من جسم مدركه البصر ونفس مدركها البصيرة والهما أشار بقوله تعالى اني خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فالاشارة بالروح الى النفس واضافته تعالى الروح اليه تشريفا لها وعنى به النفس المذكور في قوله تعالى اخرجوا أنفسكم ووجود النفس في الانسان لا يحتاج أن يدل عليه لوضوح أمره بل يتنبه الجاحد لها والغافل عنها بانها هي التي بحصولها في الجسم تحصل الحياة والحركة والحس والعلم والرأي والتمييز ويكون الجسم متصرفا بها وحاملا وهو مستحسنا ومستطابا بحصولها وبفقدها عدم هذه الاشياء فيصير جيفة محتاجا الى عدة تحمله وهي محل الاعراض

والروحانية كالجسم فى كونه محلا للاعراض الجسمانية وقد حث الله تعالى على تدبر النفس والتفكر فيها وجعل معرفتها مقرونة بمعرفته تعالى فى قوله وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون وقال تعالى سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق وكان يقال فى الامم السالفة من أنكر البارى رجم لكونه جاحدا ومن أنكر النفس رجم لكونه جاهلا وقيل كان فى كتب الله تعالى المنزلة اعرف نفسك يا انسان تعرف ربك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه بل قال الله تعالى ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم أنفسهم تنبيها انهم لما نسوه تعالى دل نسيانهم اياه على نسيانهم لها وقالت الحكماء قد ركب الله تعالى الانسان تركيبا محسوسا معقولا على هيئة العالم وأوجد فيه شبه كل ما هو موجود فى العالم حتى قيل الانسان هو عالم صغير ومختصر للعالم الكبير وذلك ليدل به على معرفة العالم فيتوصل بهما الى معرفة صانعهما فغاية معرفة الانسان لبارئه تعالى ان يعرف العالم فيعلم انه موجد وان له موجدا ليس مثله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

(الباب الثالث فى تعديد قوى الانسان وصفاته)

قد جعل الله تعالى للانسان خمس قوى يدل على وجودها فيه ما يظهر من تأثيراتها (قوة الغذاء) وبها النشوء والتربية والولادة (وقوة الحس) وبها الاحساس واللذة والالم (وقوة التخيل) وبها تصور أعيان الاشياء بعد غيبوبتها عن الحس (وقوة النزوع) وبها يكون الطلب للموافق والهرب من المخالف والرضى والغضب والايثار والكراهة (وقوة التفكر) وبها يكون النطق والعقل والحكمة والروية والتدبير والمهنة والرأى والمشورة فاما القوى المدركة منها فخمس الحواس الخمس والخيال والفكر والعقل والحفظ فاما الحواس فلكل واحد منها ادراك مخصوص فللحس عشرة ادراكات الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة وللذوق سبع الحلاوة والمرارة والملوحة

والحموضة

والحموضة والحرافة والعفوصة واللذعة وللشم اثنان الطيب والنتن وللسمع اثنان الصوت الخفيف والصوت الثقيل وللبصر أحد عشر ادراكات النور والظلمة واللون والجسم وسطحه وشكله ووضعه ورفعه وابعاده وحركاته وسكناته واعداده فادون هذه الادراكات اللمس ثم الذوق ثم الشم فالنفس لا تكاد تستعين بها الا فيما يعود نفعها الى صلاح الجسم وأرفع الادراكات العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس الا ان العقل والفكر يدركان الاشياء الروحانية فأما السمع والبصر فتوسطان لانهما يخدمان النفس والجسم وخدمتهما للنفس أكثر ويدركان الاشياء الجسمانية والتخيل متوسط بين العقل والفكر وبين السمع والبصر فأخذ تارة من السمع والبصر ويسلمها الى العقل والفكر وذلك في حال اليقظة ويأخذ تارة من العقل والفكر ويسلمه الى السمع والبصر وذلك في حال النوم ولما كان مبدأ تأثير هذه القوى من الدماغ قيل مسكن الفكر وسط الدماغ ومسكن الخيال مقدمه ومسكن الحفظ والذكر مؤخره ولما كان قوام الدماغ بل قوام الجسم كله من القلب الذي منه منشأ الحرارة الغريزية صار في كلام الناس يعبر عن هذه القوى تارة بالدماغ فيقال افلان دماغ اذا قويت منه هذه القوى المدركة وفلان خالي الدماغ اذا ضعفت فيه هذه القوى ويعبر عنها تارة بالقلب والثاني أكثر وعلى ذلك قوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ولما كان ادراك أكثر الحقائق بهذه القوى المدركة وكانت الفكرة خادمة للعقل والتخيل خادما للعقل والفكر تارة وللسمع والبصر تارة خص الله تعالى بالذكر القلب وهو أحد الطرفين والسمع والبصر وهو الطرف الآخر ولذلك عظم الله تعالى المنة على الانسان باعطائه اياه هذه الثلاث وحمد من استعملها وذم من أهملها فقال وجعل لكم السمع والابصار والافئدة وقال في ذم من لا ينتفع بها لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها وقال صم بكم عمي فهم لا يعقلون أي لا يفهمون المعنى لانهم لا يسمعون الاصوات ولا يبصرون الذوات وجعلهم بكما من حيث انهم لا يوردون معنى مستنبطا بالفكر ومدركا بالعقل واعلم أن السمع والبصر كالاخوين يخدم كل واحد منهما صاحبه في ادراكه فقد ينوب السمع عن البصر في ابلاغ القلب بما يأخذه عن اللفظ فيدرك في ساعة

فما لا يدركه البصر في برهة وينوب البصر عن السمع في ابلاغ القلب بعظم
الكتب ما لا يدركه السمع في مدة سيما اذا كان الخاطب ناقص العبارة أو غير
متثبت في الكلام أو دق المعنى وغمض

(الباب الرابع في تعاون القوى الروحانية وكيفيات ادراكها)

القوى الروحانية متعاونات في ادراكهن رسوم المعلومات فان الخيال يتصور
من المحسوس فتبقى صورته الروحانية فيه فينتقش بها نقش الشمع بصورة
الختم ثم يأخذه الفكر فيميز بعضها عن بعض بنور العقل فيبحث عن خواصها
ومنافعها ومضارها ثم يؤديه الى القوة الحافظة فان أراد ابرازه قولا سلط
عليه القوة الناطقة فيعبر عنه باللسان وان أراد ابرازه فعلا سلط عليه القوة
الباطشة فيوجده بالجوارح وقد ضرب بعض الحكماء مثلا لهذه القوى يقرب
منه تصور تأثيراتها فقال ان القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ بمنزلة الملك
تسكن وسط المملكة والخيالية ومسكنها مقدم الدماغ جارية تجري
مجرى صاحب البريد والحافظة ومسكنها مؤخر الدماغ جارية مجرى خازنه
والقوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه والعاملة جارية مجرى كاتبه والحواس
جارية مجرى الجواسيس وأصحاب الاخبار الصادقي اللهجات فيما يرفعونه من
الاخبار فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع الذي وكل به فيرفعه الى صاحب
البريد وصاحب البريد يسقط ما يراه حشوا ويرفع الباقي صافيا الى حضرة الملك
فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ويسلمه الى خازنه الى وقت الحاجة فعند
يتقدم باخراجه قالوا وكما ان للملك افعالا يستعين فيها بغيره وافعالا ينفرد فيها هو
بنفسه والافعال التي يتولاها بنفسه اشرف من التي يفوضها الى غيره كذلك
للقوة المفكرة افعال تفوضها الى غيرها وافعال تختص هي بها وهي الروية
والفكر والاعتبار والقياس والفراسة فهذه الاشياء تدبير الامور فبالفكر
استخراج الغوامض وبالاعتبار يحصل التجربة وبالقياس استنباط المجهول
بتوسط المعلوم وبالفراسة الاطلاع على الاسرار ونحو هذا المثل ما روي ان
كعب الاحبار قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت الانسان عينه هادية
واذنه واقعة ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريدان والقلب ملك فاذا طاب

الملك طاب جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(الباب الخامس في بيان فضيلة الانسان على سائر الحيوان)

الانسان فضل على الحيوانات كلها في نفسه وجسمه أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتدبير والرأي فان البهائم وان كان كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ولا روية ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف علل الاشياء ولا أسبابها وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية وانما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة فاقواها في ذلك الفيل والقرد واما فضله في جسمه فباليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما أوجد في هذا العالم وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم وقوله وصوركم فاحسن صوركم ولم يعن الصورة الخطوطية فقط بل عناها والصورة المعقولة ولتشريفه تعالى اياه بذلك قال ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ومن زعم ان الانسان خلق خلقة ناقصة عن الوحشيات من حيث انه لم يكف الملبس كما كفيته ولم يعط سلاحا في ذاته كما أعطى كثيرا منها فنظره ناقص اذ قد أعطى الانسان بدل ذلك التمييز الذي يمكنه ان يتخذ به كل ملبس وكل سلاح حسب ما يريده فيتناوله متى أراد ويضعه متى أحب ثم لو أعطى الانسان بعض الاسلحة التي أعطيته لم يمكنه أن يستعمل غيره كالوحشيات وأيضا فلو أعطى ذلك لكان من الحق ان لا يعطى التمييز لانه حينئذ كان يستغني عنه فتبطل فائدته وفعل الله تعالى منزه عن ذلك ان قيل كيف قال تعالى خلق الانسان ضعيفا فاستضعفه قيل ضعفه بالاضافة الى الملأ الاعلى لما فيه من الحاجات البدنية التي كفيها واعلم أن كل ما أوجد في هذا العالم فانما أوجد لاجل الانسان اما لانتفاعه به كالخيل والبغال والحمير والاغنية له كالبقر والغنم والحبوب والثمار واما لانتفاع ما ينتفع به الانسان كالعشب والحشرات ومالا يعرف الانسان نفسه فليس يخرج من كونه نافعا وقد بين الحكماء نفع جلها ومالا سبيل لبعضنا أو لكلنا الى معرفة نفسه فليس جهلنا به قادحا في حكمة الله تعالى جدة في ايجاده وربما شيء جهلنا نفعه وقد يخبر لمعرفته بعض

الحيوانات كالشجر الذى فيه العسل بالقوة وما سخر امرفته واستخراجه الا النحل وما أليق من أنكر حكمته تعالى بجهله بأن ينشد

على تحت القوافى من مقاطعها * وما على بان لا يفهم البقر

والله أعلم

(الباب السادس فى بيان ما يفضل به الانسان)

الانسان وان كان هو بكونه انسانا أفضل موجود فذلك بشرط ان يراعى ما به صار انسانا وهو العلم الحق والعمل المحكم فبقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضل ولهذا قيل الناس ابناء ما يحسنون اى ما يعرفون ويعملون من العلوم والاعمال الحسنة يقال أحسن فلان اذا علم واذا عمل حسنا فأما الانسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة فى جدار واما فضيلته فبالنطق وقواه ومقتضاه ولهذا قيل ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة فالانسان يضارع الملك بقوة النطق والعلم والفهم ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح فمن صرف همته كلها الى تربية الفكر بالعلم والعمل فخليق بان يلحق بافق الملك فيسمى ملكا وربانيا كما قال تعالى ان هذا الا ملك كريم ومن صرف همته كلها الى تربية القوة الشهوية باتباع اللذات البدنية بأكل كما تأكل الانعام فخليق بان يلحق بافق البهائم فصيرا ما غمرا كثور واما شرها كخنزير واما ضريا كسكلب أو حقودا كجمل أو متكبرا كنمر أو ذا روغان كثعلب أو جامعا كديك أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد وعلى ذلك قوله تعالى وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ولكون كثير من صورته صورة الانسان وليس هو فى الحقيقة الا كبعض الحيوان قال الله تعالى فى الذين لا يعقلون عن الله عز وجل ان هم الا كالانعام بل هم أضل وقال ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون فبين ان الذين كفروا ولم يستعملوا القوة التى جعلها الله تعالى لهم هم شر الدواب وقال مثل الذين كفروا كمثل الذين ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء أى مثل واعظ الكافرين كناعق الاغنام تنبيها انهم فيها يقال لهم كالبهائم ولهذا النظر عير الشاعر عن بعض من ذمه فقال

اللؤم أكرم من بر ووالده * واللؤم أكرم من بر وما ولدا

ولم يقل ومن ولدا تنبيها انه لا يستحق ان يقال له من لكونه بهيمة وعلى هذا قال المتنبي

تحولي بكل مكان منهم خلق * تخطى اذا جئت في استفهامه بمن

وناذكر انا لم يكن بين بعض هذه الانواع وبعضها من التفاوت ما بين انسان وانسان فانك قد ترى واحدا كعشرة وعشرة كمائة بل واحدا كمائة وعشرة أخرى هدره دون واحد كما قيل لامرأة في منامها أعشرة هدره أحب اليك أم واحد كعشرة فقالت بل واحد كعشرة قال الشاعر

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا * لدى المجد حتى عد الف بواحد

بل نرى واحدا كعشرة آلاف ونرى عشرة آلاف دون واحد كما قال عليه السلام وهو أصدق قيلا الناس كابل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة والابل في تعارفهم اسم لمائة بعير فمائة ابل هي عشرة آلاف بعير بل لو قيل قد ترى واحدا كعالم وعالما كواحد مجازا كما قال عليه السلام وزنت بامتي فرجحتهم وعلى هذا قال أبو نواس

ليس على الله بمستنكر * ان يجمع العالم في واحد

(الباب السابع في كون الانسان بين البهيمة والملك)

الانسان لما ركب تركيبا بين بهيمة وملك فشبهه للبهائم بما فيه من الشهوات البدنية من المأكل والمشرب والمنكح وشبهه للملك بما فيه من القوى الروحانية من الحكمة والعدالة والجود صار واسطة بين جوهرين رفيع ووضيع ولهذا قال تعالى وهديناه النجدين فالنجدان من وجه العقل والهوى ومن وجه الآخرة والدنيا ومن وجه الايمان والكفر ومن وجه الهدى والضلالة ومن وجه موالاة الله عز وجل وموالاة الشيطان المذكوران في قول الله عز وجل الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ومن وجه النور والظلمة المذكوران في هذه الآية أي الفضيلة والنقيصة ومن وجه الحياة والموت المذكوران في قوله تعالى أو من كان ميتا فأحييناه فمن وفقه الله تعالى عز وجل للهدى

وأعطاه قوة ليبلغ المدى فراعى نفسه وزكاها فقد أفلح ومن حرمه التوفيق فاهمل نفسه ودساها فقد خاب وخسر كما قال الله سبحانه وتعالى قد أفلح من زكيها وقد خاب من دساها

(الباب الثامن ما لاجله أوجد الانسان)

الانسان من حيث هو انسان كل واحد كالآخر كما قيل

فالارض من تربة والناس من رجل * وانما تشرف بان يوجد كاملا في المعنى الذي وجد لاجله وبيان ذلك ان كل نوع أوجده الله تعالى في هذا العالم أو هدى بعض الخلق الى ايجاده وصنعه فانه موجد لفعل يختص به كالبعير انما خص به ليبلغنا واثقالنا الى بلد لم نكن بالغيه الا بشق الانفس والفرس ليكون لنا جناحا نطير به والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما والباب لنحرز به البيت فالفعل المختص بالانسان ثلاثة عمارة الارض المذكورة في قوله تعالى واستعمركم فيها وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره وعبادته المذكورة في قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وذلك هو الامتثال للباري تعالى في عبادته في أوامره ونواهيه وخلافته المذكورة في قوله تعالى و يستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون وغيرها من الآيات وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة ومكارم الشريعة هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم والاحسان والفضل والقصد منها ان يبلغ بذلك الى جنة المأوى وجوار رب العزة تبارك وتعالى وكل ما أوجد لفعل ما فشرفه لتمام وجود ذلك المعنى منه ودناءته لفقدان ذلك منه كالفرس للعدو والسيف للعمل المختص به في القتال ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي لاجله أوجد كان ناقصا فاما ان يطرح طرحا أو يرد الى منزلة النوع الذي هو دونه كالفرس اذا لم يصلح للعدو اتخذ حمولة أو أعد أكولة والسيف اذا لم يصلح للقطع اتخذ منشارا فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا لعبادته ولا لاستعمار أرضه فالبهيمة خير منه ولذلك قال الله تعالى في ذم الذين تكلموا هذه الفضيلة ان هم الا كالانعام بل هم أضل

*(الباب

(الباب التاسع السياسة التي يستحق بها خلافة الله تعالى)

قد تقدم ان الخلافة تستحق بالسياسة وذلك بتحري مكارم الشريعة والسياسة ضربان أحدهما سياسة الانسان نفسه وبدنه وما يختص به والثاني سياسة غيره من دونه وأهل بلده ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه ولهذا ذم الله تعالى من ترشح لسياسة غيره فامر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو غير مهذب في نفسه فقال أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون وقال يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهديتم أي هذبوها قبل الترشح لتهذيب غيركم وبهذا النظر قيل تفقهوا قبل أن تسودوا وتنبيها انكم لا تصلحون للسيادة قبل معرفة الفقه والسياسة العامة ولان السائس يجري من السوس مجرى ذي الظل من الظل ومحال ان يعوج ذو الظل ويستقيم ظله ولاستحالة ان يهتدي السوس والسائس ضال قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر فحكم انه محال أن يكون مع اتباعه الشيطان يأمر الا بالفحشاء

(الباب العاشر في الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الارض)

اما مكارم الشريعة فمبدأها طهارة النفس بالتعلم واستعمال العفة والصبر والعدالة ونهايتها التخصص بالحكمة والجود والحلم والاحسان فبالتعلم يتوصل الى الحكمة وباستعمال العفة يتوصل الى الجود وباستعمال الصبر يدرك الشجاعة والحلم وباستعمال العدالة يصح الافعال ومن حصل له ذلك فقد تدرع المكرمة المعنية بقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وصلح لخلافة الله تعالى عز وجل وصار من الربانيين والشهداء والصديقين واعلم ان العبادة أعم من المكرمة فان كل مكرمة عبادة وليس كل عبادة مكرمة والفرق بينهما أن للعبادات فرائض معلومة وحدودا مرسومة وتاركها يضيع ظالما متعديا

والمكارم بخلافها وان يستكمل الانسان مكارم النفس بعشرة لم يقم بوظائف العبادات فقصري العبادات من باب العدالة وتحري المكارم من باب الافضال والنفل ولا يقبل تنفل من أهمل الفرض ولا يفضل من ترك العدل بل لا يصح تقاضي الفضل الا بعد العدل فان العدل فعل ما يجب والتفضل الزيادة على ما يجب وكيف يصح تصور الزيادة على شيء وغير حاصل في ذاته ولهذا قيل لا يستطيع الوصول من ضيع الاصول فمن شغله الفرض عن النفل فمعذور ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور وقد أشار تعالى بالعدل الى الاحكام وبالاحسان الى المكارم بقوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ففعل الخير هو الزيادة على العبادة واما عمارة الارض والقيام بما فيه تزجية حياة الناس وصلاح معاشهم فالانسان الواحد من حيث لم يكف أمر معاشه بانفراده من ماكله وملبسه ومسكنه وليس له سبيل الى ثباته في الدنيا الا بما يسد جوعته ويستر عورته ويقيه من الحر والبرد لم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له ولذلك قال تعالى ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ومتى كان سعي العبد في ذلك على الوجه الذي يجب وكما يجب يكون سعيه عبادة وجهادا في سبيل الله تعالى كما قال عليه السلام من طلب الرزق على ما يسن فهو في جهاد ومن لم يكن على ذلك فسعيه يكون هباء منثورا كما تعالى هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وكان فيما يتولاه خادما للناس مسخرا بالارادة منه تخدمهم حتى كأنه من جملة البهائم التي سخرها الله تعالى لعباده فامتن عليهم بها في قوله والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة

(الباب الحادي عشر كون طهارة النفس شرطا في صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته)

لا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه الا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسها ونجسها فللنفس نجاسة كما ان للبدن نجاسة لكن نجاسة البدن قد تدرك بالبصر ونجاسة النفس لا تدرك الا بالبصيرة واياها قصد تعالى بقوله

انما

انما المشركون نجس ولقوله تعالى والرجز فاهجر وبقوله كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون وانما لم يصلح لخلافة الله الا من كان طاهر النفس لان الخلافة هي الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية في تحري الافعال الالهية ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل فكل اناء بالذي فيه يرشح ولن يخل مسلك سوء عن عرف سوء ولهذا قيل من طابت نفسه طاب عمله ومن خبثت نفسه خبث عمله وقال عليه السلام المؤمن اطيب من عمله والكافر أخبث من عمله بل قد أشار تعالى الى ذلك بقوله الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات وقوله والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا ولاجل انه لا يطيب عمل من خبثت نفسه قال تعالى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقال بعضهم في قوله عليه الصلاة والسلام لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب انه أشار بالبيت الى القلب وأشار بالكلب الى الحرص والحسد ونحوهما ونبه ان نور الله تعالى لا يدخله اذا كان فيه ذلك واستدل على صحته بأن الحرص يقال له الكلب وانه يقال فلان أحرص من كلب ويقوى ذلك ما روي أن التقوى لا تسكن الا قلبا نظيفا والى الطهارتين أشار بقوله تعالى وثيابك فطهر والرجز فاهجر وكنى بالثياب عن البدن كقول الشاعر

ثياب بني عوف طهارى نقية * وأوجههم عند المشاهد غران

وقال تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وقال ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وقال ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقد قال بعض الحكماء العلماء انما سميت الحواريون بذلك لانهم كانوا يطهرون نفوس الناس بافادتهم الدين والعلم من قولهم حوريته أي بيضته وما روي انهم كانوا قصارين فاشارة الى هذا المعنى وان كان من لم يتخصص لمعرفة الحقائق تصور من هذا التفسير المهنة المعروفة بين العامة

(الباب الثاني عشر فيما يفزع اليه من طهارة النفس)

الذي به يطهر النفس حتى يترشح لخلافة الله تعالى ويستحق به ثوابه هو العلم

والعبادات الموظفة التي هي سبب الحياة الاخروية كما ان الذي يطهر به البدن هو الماء الذي هو سبب الحياة الدنيوية ولذلك سماها الحياة وسمى ما أنزل الله تعالى في كتابه الماء فقال استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم فسمى العلم والعبادة حياة من حيث ان النفس متى بقيت بهما هلكت هلاك الابد كما قال في وصف الماء وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون وقال أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها قال ابن عباس رضي الله عنهما عنى بالماء القرآن اذ كان به طهارة النفس قال والأودية القلوب احتملته بحسب ما وسعته قال بعض العلماء في قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء وقوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا انه عنى به القرآن وكقوله وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين وأجود بحجة قوله تعالى فان الماء المنزل من السماء المختص بالطهارة الذي لا يسد غيره من المياه مسده هو هذا الماء أعني كلام رب العزة فأما المختص بطهارة البدن فقد يسد غيره مسده في الطهارة لان الذي ينبع من الارض بعمل عمله والذي يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلاث قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم وقوة الشهوة بقمعها حتى يحصل العفة والجود وقوة الحمية باستيلائها حتى ينقاد للعقل فيحصل الشجاعة والحلم فيتولد من اجتماع ذلك العدل في جميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى الثلاث أما من فساد الفكرة فيتولد الجربزة والبله وأما من فساد الشهوة فيتولد الشره أو خمود الشهوة وأما من فساد الحمية فيتولد التهور أو الجبن ومن حصول هذه الاشياء أو حصول بعضها يحصل اما الظلم واما الانظلام فجميع رؤس الفضائل الخلقية أربعة وجميع رؤس الرذائل الخلقية ثمانية

(الباب الثالث عشر بيان ملازمة الهوى للعقل)

اعلم أن مثل الانسان في بدنه كمثل وال في بلده وقواه وجوارحه بمنزلة صناع وعملة والعقل له بمنزلة مشير عالم ناصح والشهوة فيه كعبد سوء جالب للمضرة والحمية له كصاحب شرطة والعبد الجالب للمضرة حيث ما كر يمثل للوالي بصورة الناصح وفي نحره ذنب العقرب ويعارض الوزير في تدبيره ولا يغفل ساعة من

* منازعته

منازعته ومعارضته وكما ان الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث وأدب صاحب شريعته وجعله مؤثرا لوزيره وسلطه على هذا العبد وتباعه حتى يكون هذا العبد سوسا لاساسا ومدبرا لامدبرا استقام أمر بلده فكذا أيضا النفس متى استعانت بالعقل في التدبير وأدبت الحمية وسلطته على الشهوة وقواها استتبت أمرها والا فسدت ولهذا قد حذرنا الله تعالى غاية الحذر من اتباع الهوى فقال ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله وقال تعالى في ذم من اتبعه أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وقال أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب وقال تعالى في مدح من عصاه وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى وقال عليه الصلاة والسلام أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك اشارة الى الهوى فالعقل وان كان أشرف القوى وبه صار الانسان خليفة الله عز وجل في العالم فليس دأبه الا الاشارة الى الصواب كطبيب يشير الى المريض بما يرى فيه برءه فان قبل منه المريض والا سكت عنه ولذلك جعل له الحمية لتكون نائبة عنه في المدافعة والممانعة ولهذا لا يتبين فضيلة العدل من الحمية له ولهذا النظر قيل المهين من لا سفيه له وقال

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتقي مربض المستأسد الحامي

وأيضا مثل النفس في البدن مثل مجاهد بعث الى ثغر يراعي أحواله وعقله خليفة مولاه ضم اليه ليسدده ويرشده ويشهد له وعليه بما يفعله اذا عاد الى حضرة مولاه وبدنه بمنزلة فرس دفع اليه ليركبه وشهوته سائس خبيث ضم اليه ليتعهد فرسه ولا قدر لهذا السايس عند المولى والقرآن بمنزلة كتاب أتاه من مولاه وقد ضمن كل ما يحتاج اليه عاجلا وآجلا كما وصفه الله تعالى بقوله وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وقوله ما فرطنا في الكتاب من شيء والنبي عليه الصلاة والسلام بمنزلة رسول أتاه اليه بالكتاب ليبين له ما يشكل عليه مما يقرؤه من الكتاب وقبيح ان ينسى هذا الوالي مولاه ويهمل خليفته فلا يراجعه فيما يبرمه وينقضه ويصرف همه كله الى تفقد فرسه وسائسه ويقيم سايس فرسه مقام خليفة ربه ومن وجه آخر الانسان من حيث ما جعله الله تعالى عالما صغيرا وجعل

بدنه كمدينة والعقل كالملك مدبر فيها وقواه من الفكر والخيال والحواس كجنده وأعوانه والاعضاء كرعيته والشهوة كعدو ينازعه فى مملكته ويسعى فى اهلاك رعيته صار بدنه كرباط وثغر ونفسه كقيم فيه مرابط فان جاهد أعداءه فهزمهم أو أسرهم أو قهرهم على ما يجب وكما يجب عد أثره اذا عاد الى حضرته كما ضمنه تعالى حيث يقول فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما فدفاع الهوى أعظم جهاد كما قال عليه الصلاة والسلام وقد سئل أى الجهاد أفضل قال جهادك هواك وان ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره اذا عاد اليه كما قال النبى عليه الصلاة والسلام كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته وقال ان الله تعالى يقول للكافرين يوم القيامة يا راعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم منك وأيضا مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه معلما فهو قادر بادراك حاجته من الصيد ومتى كان أحمق وفرسه جموحا أو مرونا وكلبه عقورا فلا فرسه يبعث تحته منقادا ولا كلبه يستطيع معه مطيعا فهو قادر ان يعطبه فضلا عن ان يدرك ما طلب وللانسان مع هواه ثلاثة أحوال الاولى ان يغلبه الهوى فيملكه كما قال تعالى أفرأيت من اتخذ الهه هواه والثانية ان يغالبه فيقهره مرة ويقهره مرة أخرى واياه قصد بمدح المجاهدين وعناه النبى عليه الصلاة والسلام بقوله جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم والثالث أن يغلب هواه ككثير من الانبياء وبعض صفوة الاولياء وهذا المعنى قصد بقوله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى وقصد النبى عليه الصلاة والسلام بقوله ما منا من أحد الا وله شيطان وان الله قد أعاننى على شيطانى حتى ملكته فان الشيطان يتسلط على الانسان بحسب وجود الهوى فيه والله أعلم بالحقيقة

(الباب الرابع عشر الفرق بين ما يسومه العقل وبين ما يسومه الهوى)

من شأن العقل ان يرى ويختار أبدا الافضل والاصلح فى العواقب وان كان

على النفس في المبدء مؤونة ومشقة والهوى على الضد من ذلك فانه يؤثر ما يدفع به المؤذي في الوقت وان كان يعقب مضرة من غير نظر منه في العواقب كالصبي الرمد الذي يؤثر أكل الحلاوات واللعب في الشمس على تناول الاهليلج والحجامة ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وأيضا فان العقل يرى صاحبه ماله وما عليه والهوى يريه ماله دون ما عليه ويعمى عليه ما يعقبه من المكروه ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام حبك الشيء يعمي ويصم ولذلك ينبغي للعاقل ان يتهم رأيه أبدا في الاشياء التي هي له لا عليه ويظن انه هوى لا عقل ويلومه وينبغي ان يستقي النظر فيه قبل امضاء العزيمة حتى قيل اذا عرض لك امران فلم تدر أيهما أصوب فعليك بما تكرهه لا بما تهواه فأكثر الخير في الكراهة قال الله تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وقال فعسى ان تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وأيضا فان ما يرى العقل يتقوى اذا فزع فيه الى الله عز وجل بالاستخارة وتساعد عليه العقول الصحيحة اذا فزع اليها بالاستشارة وينشرح له الصدر اذا استمين فيه بالعبادة وما يراه الهوى فبالضد من ذلك وأيضا فان العقل يرى ما يرى بحجة وعذر والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل وربما تشبه الهوى بالعقل فيتعلق بشبهة مزخرفة ومعذرة موهمة كالعاشق اذا سئل عن عشقه والمتناول لطعام ردي اذا سئل عن فعله قال بعض العلماء اذا مال العقل نحو مؤلم جميل والهوى نحو ملذ قبيح فيتنازعان بحسب غرضهما ويتحاكمان الى القوة المدبرة بادر نور الله عز وجل الى نصر العقل ووساوس الشيطان الى نصر الهوى كما قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات فمتى كانت القوة المدبرة من أولياء الشيطان وحزبه لم تر نور العقل فعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل على علم ومتى كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره واستهانت بلذة العاجل وطلبت سعادة الآجل كما قال تعالى وامايزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ومما نبه الله تعالى به على فساد الهوى قوله ولو اتبع

في القاموس الاهليلج وقد تكسر اللام الثانية والواحدة بهاء ثم ذكر منه أصفر ومنه اسود وهو البالغ النضيد ومنه كابلي ينفع من الخوانيق ويحفظ العقل ويزيل الصداع اه بحروفه

الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن أي لو أعطى كل انسان ما يهواه مع ان كل واحد يهوى ان يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة وان يتملك في الدنيا الخبر الابدي بلا مزاولة ولا طلب لكان في ذلك فساد العالم وقيل في قوله تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء الآية انه ضرب الشجرة الطيبة مثلا للعقل والخبيثة مثلا للهوى ففرع الطيبة النور والاسلام وفرع الخبيثة الكفر والضلال ان قيل ما الفرق بين الشهوة والهوى قيل الشهوة ضربان محمودة ومذمومة فالمحمودة من فعل الله سبحانه وهي قوة جعلت في الانسان لتنبعث بها النفس لنيل ما يظن ان فيه صلاح البدن والمذمومة من فعل البشر وهي استجابة النفس لما فيه لذاتها البدنية والهوى هي هذه الشهوة الغالبة اذا استتبعت الفكرة وذلك ان الفكرة بين العقل والشهوة فالعقل فوقها والشهوة تحتها فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن واذا اتضعت ومالت نحو الهوى والشهوة صارت وضيعة وولدت المقابح والنفس قد تريد ما تريد بمشورة العقل تارة ومشورة الهوى تارة ولهذا قد تسمى الهوى ارادة

(الباب الخامس عشر في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة العقل والهوى)

أول ما يعرض من ذلك الساعة ثم الخاطر والى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ان للشيطان لمة بابن آدم وان للملك لمة فاما لمة الملك فوعد بالخير وتصديق الحق بالحق واما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء الآية ثم من بعدهما الارادة ثم العزم ثم العمل فالساعة علة الخاطر والخاطر علة الارادة والارادة وهي الهمة علة العزم فالساعة والخاطر يعبر عنهما بالهاجس والهاجس متجاوز عنه ما لم يصر ارادة وعزما في الانسان اذا خطر له خاطر ان يسرع عاجلا فان وجده خيرا رباه حتى يجعله فعلا وان وجده شرا بادر الى قمعه وقلعه قبل ان يصير ارادة ويطهر منه قلبه تطهير ارضه من خبيثات النبات وهذا المعنى أراده الحسن رحمه الله بقوله رحم الله عبدا وقف عند همه فان كان لله عز وجل مضى والا كف قال بعض

الحكماء

الحكماء ان تداركت الخطرة اضمحلت والا صارت شهوة وان تداركت الشهوة والا صارت طلبا وان تداركت الطلب والا صار عملا وقال بعض الحكماء ان ولي الله اذا أتته لمة الشيطان انزعج لذلك ورأى ببصيرته ظلمة ووجد روعة واذا أتته لمة الرحمن انشرح صدره وأولياء الشيطان بخلافه لقوله تعالى واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون والله ولي الرشاد

(الباب السادس عشر حصول الخلق المحمود بطهارة النفس)

قد تقدم ان طهارة النفس باصلاح القوى الثلاث فاصلاح المفكرة بالتعلم حتى يتميز بين الحق والباطل في الاعتقاد وبين الصدق والكذب في المقال وبين الجميل والقبيح في الفعال واصلاح الشهوة بالعفة حتى تنساس بالجود والمواساة المحمودة بقدر الطاقة واصلاح الحمية باسلاسها حتى يحصل التحلم وهو كف النفس عن قضاء وطر الغضب وتحصل الشجاعة وهي كف النفس من الخوف وعن الحرص المذمومين وباصلاح القوى الثلاث يحصل للنفس العدالة والاحسان وهذه جماع المكارم من طهارة النفس وحسن الخلق الممدوح بقوله عليه الصلاة والسلام أكمل المؤمنين ايمانا احسنهم اخلاقا وألطفهم باهله ويعني باللطافة بالاهل تهذيبهم وتأديبهم المشار اليه بقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا والممدوح أيضا بقوله عليه الصلاة والسلام أحبكم الي أحاسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وقيل جماع المكارم في قوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون وذلك انه بالايمان يحصل العلم والحكمة وذلك باصلاح المفكرة وبالمجاهدة بالاموال والانفس تحصل العفة والجود اللذان هما تابعان لاصلاح الشهوة والشجاعة والحلم اللذان هما تابعان لاصلاح الحمية وعلى ذلك قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال النبي عليه الصلاة والسلام في تفسير ذلك هو ان تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك فالعفو

عمن ظلمك نهاية الحلم والشجاعة واعطاء المال من سرقك نهاية الجود ووصل من قطعك نهاية الاحسان والله أعلم

(الباب السابع عشر الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة)

الطبع أصله من طبع السيف وهو اتخاذ الصورة المخصوصة في الحديد وكذلك الطبيعة والضريبة اعتبارا بضرب الدراهم والسجية اعتبارا بالنحت والنجر اعتبارا بنجر الخشب والغريزة اعتبارا بما غرز عليه وكل ذلك اسم للقوة التي لا سبيل الى تغييرها والشيمة اسم للحالة التي عليها الغريزة اعتبارا بالشامة التي في أصل الخلقة والسجية اسم لما سجي عليه الانسان من قولهم عين ساجية أي فاترة خلقة واكثر ما يستعمل ذلك كله فيما لا يمكن تغييره وأما الخلق ففي الاصل كالخلق كقولهم الشرب والشرب والصرم والصرم لكن الخلق يقال في القوى المدركة بالبصيرة والخلق في الهيئات والاشكال والصورة المدركة بالبصر وجعل الخلق تارة اسما للقوة الغريزية ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فرغ الله من الخلق والخلق والرزق والاجل وتارة يجعل اسما للحالة المكتسبة التي يصير بها الانسان خليقا ان يفعل شيأ دون شئ كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه ولهذا خص كل حيوان بخلق في أصل خلقته كالشجاعة للاسد والجبن للأرنب والمكر للثعلب ويجعل الخلق تارة من الخلاقة وهي الملاسة فكأنه اسم لما مرن عليه الانسان من قواه بالعادة وقد روي افضل الافعال الخلق الحسن وروي ما أعطى الله أفضل من خلق حسن فجعل الخلق مرة للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر وجعل مرة اسما للفعل الصادر عنه باسمه وعلى ذلك أسماء أنواعها نحو العفة والعدالة والشجاعة فان ذلك يقال للهيئة وللفعل جميعا وربما سمي الهيئة باسم والفعل الصادر عنها باسم كالسخا والجود فان السخا اسم للهيئة التي عليها الانسان والجود اسم للفعل الصادر عنها وان كان قد يسمى كل واحد باسم الآخر وأما العادة فاسم لتكرر الفعل أو الانفعال من عاد يعود وبها يكمل الخلق وليس العادة فعل الا تسهيل خروج ما هو بالقوة في الانسان الى الفعل وأما حدوث

الصحيحة الى خلاف ما خلقت له فحال فالصحة فعل الخالق عز وجل والعادة فعل المخلوق ولا يبطل فعل المخلوق فعل الخالق لكن ربما يقوى العادة قوة محكمة حتى تعد صحيحة وبهذا النظر قيل العادة طبيعة ثانية

(الباب الثامن عشر امكان تغيير الخلق)

اختلف الناس في الخلق فقال بعضهم هو من جنس الخلقة ولا يستطيع أحد تغيير ما جبل عليه ان خيرا وان شرا كما قال

ولن يستطيع الدهر تغيير خلقه * لئيم ولا يسطيعه متكرم

وما هذه الاخلاق الا غرائز * فمنهن محمود ومنهن مذمم

ويعلق أيضا بقوله عليه الصلاة والسلام من آتاه الله وجها حسنا وخلقا حسنا فليشكر الله وما روى فرغ الله من الخلق والخلق الخير فحال أن يقدر المخلوق على تغيير فعل الخالق عز وعلا فقال بعضهم يمكن تغيير ذلك واستدل بما روى حسنوا أخلاقكم فلو لم يمكن لما أمر به قال ولان الله تعالى خلق الاشياء على ضربين احدهما بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملا كالسماء والارض والهيئة والشكل والثاني خلقه خلقة ما وجعل فيه قوة ترشح الانسان لا كماله وتغيير حاله وان لم ترشحه لتغيير ذاته كالنوى الذي جعل فيه قوة النخل وسهل للانسان سبيلا الى ان يجعله بعون الله تعالى نخلا وأن يفسده افسادا قال والخلق من الانسان يجري هذا المجرى في انه لا سبيل للانسان الى تغيير القوة الى أن تصير صحيحة وجعل له سبيلا الى اصلاحها ولهذا قال تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والامر والنهي ولما جوز العقل ان يقال للعبد لم فعلت ولم تركت وكيف يكون هذا في الانسان معتنعا وقد وجدنا في بعض البهائم ممكنا فالوحشي قد ينتقل بالعادة الى الناس والجامح الى السلاسة لكن الناس في غرائزهم مختلفون فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول وبعضهم في الوسط وكل لا ينفك من أثر قبول وان قل فأرى ان من منع من تغيير الخلق فانه اعتبر القوة نفسها وهذا صحيح فان النوى محال ان ينبت منه الانسان تفاحا ومن أجاز تغييره فانه اعتبر امكان

ما فى القوة الى الوجود وافسادهما له غير النوى فانه يمكن ان يتعهد فيجعل نخلا وان يترك مهملا حتى يعفن ويفسد وهذا صحيح أيضا فاذن اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما

(الباب التاسع عشر صعوبة اصلاح القوى الشهوية وما فى هذه من المضرة والمنفعة)

أصعب هذا القوى الثلاث مداواة قمع الشهوة لانها أقدم القوى وجودا فى الانسان وأشدها به تشبثا وأكثرها منه تمكنا فانها تولد معه وتوجد فيه وفى الحيوان الذى هو جنسه بل فى النبات الذى هو جنس جنسه ثم يوجد فيه قوة الحمية ثم آخرا توجد فيه قوة الفكر والنطق والتمييز ولا يصير الانسان خارجا من جملة البهائم وأسر الهوى الا بامانة الشهوة البهيمية لو بقهرها وقمعها ان لم يمكنه امانته اياها فهى التى تضره وتغره وتصرفه عن طريق الآخرة ومتى قمعه أو أماته صار الانسان حرا نقيا بل يصير الهيار بانيا فتقل حاجاته ويصير غنيا عما فى يد غيره وسخيا بما فى يده ومحسنا فى معاملاته فان قيل فاذا كانت قوة الشهوة بهذه المثابة فى الاضرار فأى حكمة اقتضت ان يبلى بها الانسان قيل الشهوة انما تكون مذمومة اذا كانت مفرطة وأهملها صاحبها حتى ملكت القوى فأما اذا أدبت فهى المبلغة الى السعادة وجوار رب العزة حتى لو تصورت مرتفعة لما أمكن الوصول الى الآخرة وذلك ان الوصول الى الآخرة بالعبادة ولا سبيل الى العبادة الا بالحياة الدنيوية ولا سبيل الى الحياة الدنيوية الا بحفظ البدن ولا سبيل الى حفظ البدن الا باعادة ما يتحلل منه ولا سبيل الى اعادة ما يتحلل منه الا بتناول الاغذية ولا يمكن تناول الاغذية الا بالشهوة فاذن الشهوة محتاج اليها ومرغب فيها وتقتضى الحكمة الالهية ايجادها وتزيينها كما قال تعالى زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين الآية لكن مثلها مثل عدو تخشى مضرته من وجه وترجى منفعته من وجه ومع عداوته لا يستغنى عن الاستعانة به ففى العاقل ان يأخذ نفعه ولا يسكن اليه ولا يعتمد عليه الا بقدر ما ينتفع به وما أصدق فى ذلك قول المتنبى اذا تصور فى وصف الشهوة وان قصدها فما أجود ما أراد هاشعر

ومن نكد الدنيا على الحران يرى * عدوا له ما من صداقته بد

وأيضا فان هذه الشهوة هي المشوقة لعامة الناس الى لذات الجنة من المأكل والمشرب والمنكح اذ ليس كل الناس يعرف اللذات المعقولة ولو توهمناها مرتفعة لما تشوقوا الى ما وعد وابه من قول النبي صلى الله عليه وسلم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

(الباب العشرون في ازدياد الانسان في الفضائل والرذائل بتعاطيهما)

كل متعاط افعل من الافعال النفسية فانه يتقوى فيه بحسب الازدياد منه ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا فباحتمال صغار الامور يمكن احتمال كبارها وباحتمال كبارها يستحق الحمد ولهذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الايمان بيضاء في القلب كلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض واذا استكمل العبد الايمان ابيض القلب كله وان النفاق يبدو لمعة سوداء كلما ازداد النفاق اسود القلب كله فالانسان يكمل في الفضيلة بأربع درجات اثنين في الاعتقاد وهما ان يعتقد الجميل ويجعل اعتقاده عن براهين واضحة وأدلة قاطعة لا عن شبهات واهية واقناعات متداعية واثنين في الفعل وهما ان يترك العادات السيئة فيجعلها بحيث يبغضها فيتجنب الرذيلة ليتوصل الى الفضيلة وان يتعود العادات الحسنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعم بها كما قال عليه الصلاة والسلام وجعلت قرة عيني في الصلاة وكما انه يكمل بأربع درجات فانه ينتكس بأربع درجات درجتين في الاعتقاد وهما ان لا يعتقد شيأ من العلوم الحقيقية فيبقى عنها غفلا وان يعتقد عن تقليد اعتقادا فاسدا فيتلطخ به ودرجتين في العمل وهما ان لا يتعود العادة الجميلة رأسا وان يتعود العادة القبيحة فمن صار في الفضيلة الى الدرجة الرابعة فهو ممن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ومن صار في الرذيلة الى الدرجة الرابعة فهو من الذين وصفهم الله بقوله اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم وأعمى أبصارهم ثم قال أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها وقيل لحكيم الا تعظ فلانا فقال ذاك على قلبه قفل ضاع مفتاحه فلا سبيل الى معالجة فتحه وللانسان

مع كل فضيلة ورذيلة ثلاثة أحوال اما ان يكون فى ابتدائها فيقال هو وحيدها وابنها ولهذا قال بعضهم من لم يخدم العلم لم يرعه والثانى ان يتوسطها فيقال هو أخوها وصاحبها والثالث أن ينتهى فيها بقدر وسعه ويتصرف فيها كما أراد فيقال هو ربها وسيدها ومنه قيل فلان ربانى فى العلم فان رب الشئ هو الذى يربيه وسيدهو الذى يملك سواده أى جميعه وغاية الفاضل فى الفضيلة ان يقع منه أفعال الفضائل أبدا من غير فكر ولا روية لغلبة قواها عليه وبعد ما يناقضها عنه كالصانع الحاذق فى صنعته وغاية الرذل فى الرذيلة ان يقع منه أفعال الرذائل لغلبة قواها عليه ولهذا حد الخلق بانه حال الانسان الداعية الى الفعل من غير فكر ولا روية

(الباب الحادى والعشرون فى الفرق بين ما يحمد ويذم من التخلق)

الفرق بين الخلق والتخلق ان التخلق معه استثقال واكتساب ويحتاج الى بعث وتنشيط من خارج والخلق معه استخفاف وارتياح ولا يحتاج الى بعث من خارج والتخلق والتشبه بالافاضل ضربان ضرب محمود وذلك ما كان على سبيل الارتياض والتدريب ويتحراه صاحبه سرا وجهرا على الوجه الذى ينبغى وبالمقدار الذى ينبغى واياه قصد الشاعر بقوله

ولن تستطيع الخلق حتى تخلقا * بل قد قال النبى عليه الصلاة والسلام ما العلم الا بالتعلم وما الحلم الا بالتحلم وضرب مذموم وذلك ما كان على سبيل المراآة ولا يتحرى صاحبه الاحيث يقصد ان يذكر به ويسمى ذلك رياء وتصنعا وتشيعا ولن ينفك صاحبه من اضطراب يدل على تشيعه كما وجد فى كتاب كليلة الطبع المتكلف كلما زدته تثقيفا زاد تعقيفا وعلى ذلك قول الشاعر

وأسرع مفعول فعلت تغيرا * تكلف شئ فى طباع على ضده

واياه قصد عمر رضى الله عنه بقوله من تخلق للناس بغير ما فيه فضحه الله عز وجل وحال المتشيع كالجرح يندمل على فساد فلابد أن ينبعث وان كان بعد حين كما قيل

فان الجرح ينفر بعد حين * اذا كان البناء على فساد

وحكما

قوله تثقيفا فى المختار التقاف ما تسوى به الرماح وتثقيفها تسويتها اه ومنه يعرف والتعقيف التعويج اه م

قوله ينفر بالفاء ورم وتجافى عن اللحم اه م

وكما ان المض والمفلوج لا يطاوع صاحبه في تحريكه وان جاهد فتحرك الى اليمين تحرك نحو الشمال وكذا ايضا الشرير والظالم والمتهور وان جاهدوا أنفسهم في اخلائها فان نواهيهم تأبى مطاوعتهم وقد ذم النبي عليه الصلاة والسلام ذلك بقوله المتشبع بما ليس عنده كلابس ثوبي زور وتنبيها على انه كاذب بقوله وفعله فيتضاعف وزره وقد دل على ذلك قوله تعالى وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون واياه قصد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء وأقبح الرياء النفاق في الدين وأقبح النفاق ما كان في أصل الاعتقاد وهو اظهار الايمان مع استبطان الكفر ولذلك جعل الله عقابهم أعظم فقال ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار

(الباب الثاني والعشرون في سبب اختلاف الناس في أخلاقهم)

جميع الفضائل النفسية ضربان نظري وعملي وكل ضرب منهما يحصل على وجهين أحدهما بشري يحتاج فيه الى زمان وتدرب وممارسة ويتقوى الانسان فيه درجة فدرجة وان كان فيهم من يكفيه أدنى مدارسة وفيهم من يحتاج الى زيادة ممارسة وذلك بحسب اختلاف الطبائع والذكاء والبلادة والثاني يحصل بفضل الهي نحو ان يولد انسان فيصير من غير تعلم من الشعر عالما كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وغيرهما من الانبياء الذين حصل لهم من المعارف من غير ممارسة ما لم يحصل للحكماء وقد ذكر بعض الحكماء أن ذلك يحصل لغير الانبياء أيضا في الغيبة فكل ما كان بتدرب فقد يكون بالطبع كصبي يوجد صادق اللهجة سخيا وجريئا وآخر على عكس ذلك وقد يكون بالتعلم وبالعادة فمن صار فاضلا طبعا وعادة وتعلما فهو كامل الفضيلة ومن كان رذلا بثلاثتها فهو كامل الرذيلة

(الباب الثالث والعشرون وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة)

حق الانسان في كل فضيلة ان يكتسبها خلقا ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة

لذلك سواء امكنه ان يبرز ذلك فعلا أو لم يمكنه وذلك بأن يكون على هيئة الاصحياء والشجعان والحكماء والعدول وان لم يكن ذا مال يبذله ولا عرض له مقام تظهر فيه شجاعته ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيه عدالته فقد قيل لبعض الحكماء هل من موجود يعم الورى فقال نعم ان تحسن خلقك وتنوى لكل أحد خيرا وقال عليه الصلاة والسلام انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم باخلاقكم واعلم ان كل فعل محتاج فيه الى ايجاده وتجويده وتزيينه دنيويا كان أو أخرويا ولكن متى كان أخرويا يحتاج فيه مع ذلك الى أمور لا يتم ولا يكمل الا بها وهو أن يجب أن يتعاطاها قصدا الى المكرمة والا لم يعتد بها كما قال تعالى مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وان يتحراه بخلوص طوية كما قال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وان لا يقصد به جلب منفعة دنيوية أو دفع مضرة فانه يكون بفعله ذلك تاجرا ويجب عند بعض المحققين ان لا يطلب به منفعة اخروية أيضا فقد قيل من عبد الله تعالى بعوض فهو لئيم ومن فعل ذلك بانشراح صدر فهو أولى ممن يفعله بمجاهدة نفس ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ان استطعت ان تعمل لله في الرضا باليقين فافعل والا ففي الصبر على ما يكره خير كثير وقولهم الحق مر فهو باعتبار من لم تهذب نفسه ولم يزل مرضه شعر

فمن يك ذا فم مر مريضا * يجد مرا به الماء زلالا

وأما من كمل فانه يستطيب الحق وان كان ثقيلا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم * وجعلت قرة عيني في الصلاة ومن أصلح خلقه وهذب نفسه فهو أعظم الملكين فمن ملك نفسه وقواها فهذبها وزكاها فقد اطلع بذلك على ملكوت السموات والارض وملك أطوع جيش بلا عطاء يلزمه وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين فجعل النبوة مخصوصة فيهم وجعل الملك عاما لهم تنبيها على المعنى الذي ذكرت وعلى ذلك قوله تعالى أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ونذكر بعد ذلك أنواع نعم الله تعالى وما يكتسب منها والله ولي الفضل والاحسان

(الباب الرابع والعشرون أنواع نعم الله الموهوبة والمكسوبة)

نعم الله عز وجل وان كانت لا تحصى مفصلة كما قال الله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فانها بالقول المجمل خمسة أنواع الاول وهو أعلاها وأشرفها السعادة الاخروية وايا ها قصد تعالى بقوله وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ وذلك هو الخير المحض والفضيلة الصرف وهو أربعة أشياء بقاء بلا فناء وعلم بلا جهل وقدرة بلا عجز وغنى بلا فقر ولا يمكن الوصول الى ذلك الا باكتساب الفضائل النفسية واستعمالها كما قال تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا وأصول ذلك أربعة أشياء العقل وكماله العلم والعفة وكمالها الورع والشجاعة وكمالها المجاهدة والعدالة وكمالها الانصاف وهي المعبر عنها بالدين ويكمل ذلك بالفضائل البدنية وهي أربعة أشياء الصحة والقوة والجمال وطول العمر وبالفضائل المطيفة بالانسان وهي أربعة أشياء المال والعز والاهل وكرم العشيرة ولا سبيل الى تحصيل ذلك الا بتوفيق الله عز وجل وذلك بأربعة أشياء هدايته ورشده وتسديده وتأييده فجميع ذلك خمسة أنواع من عشرين ضربا ليس للانسان مدخل في اكتسابها الا فيما هو نفسي فقط واعلم ان الفضيلة الكاملة والسعادة الحقيقية هي الخيرات الاخروية وأما ما عداها فتسميته بذلك اما لكونه معاونا في بلوغ ذلك أو نافعا فيه وكل ما أعان على خير وسعادة فهو خير وسعادة وهذه الاشياء التي هي معينة ونافعة في بلوغ السعادة الاخروية متفاوتة الاحوال فمنها ما هو نافع في جميع الاحوال وعلى كل وجه ومنها ما هو نافع في حال دون حال وعلى وجه دون وجه ربما يكون ضرره أكثر من نفعه فحق الانسان ان يعرفها بحقائقها حتى لا يقع الخطاء عليه في اختياره الوضيع على الرفيع وتقديمه الخسيس على النفيس فالناس في متحريات مناطالب الخير وهارب من شر كما قال

كل يحاول حيلة يرجو بها * دفع المضرة واجتلاب المنفعه
والمرء يغلط في تصرف حاله * فلربما اختار الغناء على المعه

لكن قد يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ويقدر في الشئ انه رزق نافع وخبزه سم نافع فلذلك يحق على العاقل ان يجعل بصيرته ويعرف من كل ما يطلب حقيقته لئلا يكون كمن يريد سبيلا ينتطق به فرأى حية فظنها مبتغاه فاتخذها فلدغته وقد قسمت الخيرات على وجه آخر فقيل الخيرات ثلاث مؤثرة لذاتها ومؤثرة لغيرها ومؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها فالمؤثرة لذاتها السعادة الاخروية والنفسية والمؤثرة لغيرها الدراهم والدنانير فانا لو تصورنا ارتفاع الضرورات التي يستدفع بها لكانت هي والحصباء سواء والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها كصحة الجسم فاعلم ان الرجل وان أزيلت عنه المشي فالانسان يريد ان يكون صحيح الرجل وان استغنى عن المشي ويقال أيضا الخيرات ثلاث نافع وجميل ولذيذ والشرور ثلاث ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من ذلك ضربان أحدهما مطلق وهو الذي يجمع الاوصاف الثلاثة في الخير كالحكمة فانها نافعة جميلة ولذيذة وفي الشر كالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم والثاني مقيد وهو الذي جمع شيأ من أوصاف الخيرات وشيأ من أوصاف الشرور فرب نافع مؤلم كجدع قصير انفه فانه وان نفعه في ادراك الثار فقد آذاه ورب نافع قبيح كالحق فانه وان نفع من حيث ما قيل استراح من لا عقل له فهو جد قبيح ورب نافع من وجه ضار من وجه كمن في سفينة خاف الغرق فالقى متاعه في الماء فخلصت السفينة وكل ما نفعه ولذته وجماله أطول مدة وأغزر عائدة فهو أفضل فحق العاقل أن يرغب الى الله تعالى في أن يعطيه ما فيه مصلحته مما لا سبيل له بنفسه الى اكتسابه وان يبذل جهده مستعينا بالله عز وجل في اكتساب ماله كسبه وبلوغ الاعلى فالاعلى منه على الترتيب فبذلك شرف من ضيع أنفس السنيات مع التمكن من تحصيله فهو دنى الهمة رضي بخسيس الحال وأشرفها ما اذا حصل لم يغضب ولم يحتج في حفظه الى أعوان وحفظة وكان نافعا عاجلا وآجلا ومطلقا في كل حال وكل زمان ومكان وذلك هو الفضائل النفسية ولا سيما العقل والعلم فاما القنيات الخارجة نحو المال والجاه فانها يقال لها الخيرات المتوسطة لانها تجذب الى الفضيلة مرة والى الرذيلة مرة لانها سبب للخيرات اذا كانت مع العقل وسبب للشرور اذا كانت مع الجهل وقد نبه الله تعالى على كون ذلك سببا للشر بقوله انما أموالكم وأولادكم فتنة وقوله ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها

في الحياة

في الحياة الدنيا ولذلك قيل السعيد هو الخير العاقل غنيا كان أو فقيرا قويا كان أو ضعيفا فان قيل ما الخير والسعادة والفضيلة والنافع وهل بينهن فرق قيل أما الخير المطلق فهو المختار من أجل نفسه والمختار غيره لاجله وهو الذي يتشوقه كل عاقل بل قد قيل هو الذي يتشوقه الكل بلا مثنوية فان الكل يطلب في الحقيقة الخير وان كان قد يعتقد في الشر انه خير فيختاره وقصده الخير ويضاده الشر وهو المحبوب من أجل نفسه والمحبوب غيره من أجله قال النبي عليه الصلاة والسلام لا خير في خير بعده النار ولا شر في شر بعده الجنة فجعل الخير المطلق الجنة والشر المطلق النار كما ترى فقد يقال لكل ما يتوصل به الى الخير خير ولهذا سمى الله تعالى المال خيرا في قوله ان ترك خيرا لكن المال في الحقيقة يكون خيرا لبعض الناس وشرا لبعضهم فعلوم انه كان شرا لمن قال تعالى فيه الذي جمع مالا وعدده يحسب ان ماله أخلده وأما السعادة المطلقة فحسن الحياة في الآخرة وهي الاربع التي تقدم ذكرها من البقاء بلا فناء والقدرة بلا عجز والعلم بلا جهل والغنى بلا فقر وقد يقال لما يتوصل به الى هذه السعادات الاربع سعادة وهي الستة عشر المتقدمة ويضادها الشقاوة وأما الفضيلة فاسم لما يحصل به للانسان مزية على الغير وهي اسم لما يتوصل به الى السعادة ويضادها الرذيلة واما النافع فهو ما يعين على بلوغ الفضيلة والسعادة والخير والنافع في الشيء ضربان ضروري وهو ما لا يمكن الوصول الى المطلوب الا به كالعلم والعمل الصالح للمكلفين في البلوغ الى النعيم الدائم وغير ضروري وهو الذي قد يسد غيره مسده كالسلجبين في كونه نافعا في قمع الصفراء فان ذلك قد يسد غيره مسده وكل نافع يسمى فضيلة وسعادة وخيرا لكونه مبلغا الى ذلك وموصلا اليه

مطلب تمييز ما بين الخير والسعادة والفضيلة والنافع

(الباب الخامس والعشرون حاجة بعض هذه الفضائل الى بعض)

قد ثبت بما تقدم ان الخيرات والفضائل خمسة أنواع أخروية ونفسية وبدنية وخارجية وتوفيقية فيجب ان يعلم ان بعض ذلك محتاج الى بعض اما حاجة ضرورية بحيث لو لم يوجد لاختل حال الآخر وذلك ان السعادة الحقيقية

الاخروية لاسبيل الى الوصول اليها الا باكتساب الفضائل النفسية ولذلك قال تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا فنبه انه لا مطمع لمن أراد الوصول اليها الا بالسعي ولا سبيل الى تحصيل الفضائل النفسية الا بصحة البدن وقوته وانه لا غنى لكمال الفضائل النفسية والبدنية عن الفضائل الخارجية فانه وان أمكن ان يتصور حصولها لمن لا أهل له ولا مال له ولا عشيرة فانه لا يكمل الا بها

(الباب السادس والعشرون الفضائل المطيفة بالانسان)

قد تقدم ان ذلك بالقول المجمل أربعة أشياء المال والاهل والعز وكرم العشيرة وان هذه الاشياء نافعة في بلوغ الفضيلة الحقيقية والسعادة الاخروية وجارية مجرى الجناح المبلغ وانه لم تكن الحاجة اليها في بلوغ ذلك ضرورية فاما المال فصاحبه يتمكن من فضائل اذا فقده تكمل بلوغها فمعلوم ان كثيرا من القرب كالزكاة والحج يشكله الفقير فالفقير في شرى المكارم * كساع الى الهيجاء بغير سلاح * وكازم تصيد بلا جناح وفضله مفطا كما نبت الارض ونار كامنة في الحجر وما أصدق ما قال الشاعر

والمرء يرفعه الغنى * والفقر منقصة وذل

وقول الآخر

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله * ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى وقال صلى الله عليه وسلم نعم العون على تقوى الله المال وأما الاهل فنعم العون على بلوغ السعادة فمن كثر أهله وخاصوه صار له بهم عيون وآذان وأيد قال الله تعالى حاكيا عن لوط صلى الله عليه وسلم لو ان لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد قال الشاعر

ألم تر ان جمع القوم يخشى * وان حريم واحدهم مباح

وقال عليه الصلاة والسلام في نفع الولد اذا مات الرجل انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له وقال ريح الولد من رائحة الجنة وقال نعم العون على الدين المرأة الصالحة فالمرأة مزرعة الرجل قيضها الله تعالى

ليزرع فيها زرعه كما قال تعالى نساؤكم حرث لكم وقال تعالى آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا وأما العز فبه يأبى عن تحمل الذل ومن لا عز له لا يمكنه ان يذود عن حريمه ولذلك قيل الدين والسلطان اخوان توأمان وقرينان مؤتلفان ومؤديان الى عمارة البلاد وصلاح العباد وقيل الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهدوم وما لا حارس له فضائع وسمى الله تعالى الحجة سلطانا لقهرها أولى البصائر وقال عز اسمه ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض وأما كرم العشيرة فانه يقال له الحسب والشرف أخص بما تؤثر الآباء والعشيرة ولذلك قيل للعلوية اشراف ومن الناس من لا يعد الاصل فضيلة وقيل المرء بنفسه واستدل بقول علي أمير المؤمنين رضي الله عنه الناس ابناء ما يحسنون وقوله قيمة كل امرئ ما يحسنه وقول الشاعر

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * يغنيك محموده عن النسب

وقول الحكيم الشرف بالهمم العالية لا بالعظام البالية وليس ذلك كما ظن لان كرم الاعمام والاخوال مخيلة لكرم المرء ومظنة له فالفرع وان كان قد يفسد أحيانا فعلوم ان أصله قد يورثه الفضيلة والرذيلة فانه لا يكون من النخل الحنظل ولا من الحنظل النخل ولذلك قال الشاعر

ومايك من خير أتوه فانما * توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي الا وشيجة * وتغرس الا في منابتها النخل

وقيل

ان المرء اذا سرى فبنفسه * وابن السرى اذا سرى أسراهما

و يبين ذلك ان الاخلاق تتابع الامزجة ومزاج الاب كثيرا ما يتأدى الى الابن كالالوان والخلق والصور ومن أجل تأديها اليه قال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم الاكفاء وقال اياكم وخضراء الدمن قيل يا رسول الله وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء في المنبت السوء وما ذكر من نحو قول أمير المؤمنين على رضي الله عنه الناس ابناء ما يحسنون فحث به الانسان على اقتباس العلى ونهى عن الاقتصار على ما تؤثر الآباء وان المأثر الموروثة قليلة الغناء

٢ الغناء بالغين والفتح والمد النفع
٣ سريعة
اه م

ومتى أخلف الفرع وخالف فكأنه يخبر بأحد شيئين اما بتكذيبه من يدعى الشرف بعنصره أو بتكذيبه في انتسابه الى ذلك العنصر ومافيهما حظ لمختار والمحمود أن يكون الاصل في الفصل راسخا والفرع به شامخا كما قال الشاعر

زانوا قديمهم بحسن حديثهم * وكريم اخلاق بحسن خصال

ومن لم يجتمع له الامران فلأن يكون شريف النفس دنى الاصل أحمد من أن يكون دنى النفس شريف الاصل كما قيل

اذا الغصن لم يثمر وان كان شعبة * من المثمرات اعتده الناس في الحطب

فما الحسب الموروث لا درّ درّه * بجالب لا باخر مكتسب

وما كان عنصره في الحقيقة سنيا وفي نفسه دنيا فذلك اتى اما من اهماله نفسه وسومها واما لتعوده عادات قبيحة وصحبة اشرار وغير ذلك من العوارض المفسدة للعناصر الكريمة فليس سببه سببا واحدا

(الباب السابع والعشرون الفضائل الجسمية)

قد اشتهر قوم بذلك فقالوا كفى بالمرء أن يكون صحيح البدن بريئا من الامراض الشاغلة عن تحرى الفضائل العقلية وليس كذلك فالبدن للنفس بمنزلة الآلة للصانع والسفينة للربان اللذين بهما صار صانعا وربانا وجميع أجزاء البدن بالقول المجمل أربعة العظام التي تجرى البدن كالالواح للسفينة والعصب الذى يجرى له مجرى الرباط الذى شد به الالواح واللحم الذى يجرى له مجرى الحشو للرباطات والجلد الذى يجرى مجرى الغشاء لجميعها فاذا اعتدلت هذه الاربعة بان يعتدل فيها الاربع القوى وهى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة سمى ذلك الصحة ولولا صحة البدن لما حصل الانتفاع وأما القوة فهى جودة تركيب هذه الاركان الاربعة وهى العظام والعصب واللحم والجلد وما يتبعها وبها يصلح البدن للسعى والتصرف في امور الدنيا والآخرة وأما الجمال فنوعان احدهما امتداد القامة الذى يكون عن اعتدال الحرارة الغريزية فان الحرارة اذا حصلت رفعت اجزاء الجسم الى العلو كالنبات اذا نجم كلما كان أطلب للعلو في منبته كان أشرف في جنسه ولاعتبار بذلك استعمل في كل ما جاد في جنسه العالى والفايق وكثر المدح بطول القامة نحو قولهم

كان

كأن زرود القيطرية حلقت * حلائقها منه بجزع مقوم

وقول آخر

أشم طويل الساعدين كأنما * يناط نجاد سيفه بلواء

الثاني من الجمال ان يكون ممدودا قوى العصب طويل الاطراف ممتدها رحب الذراع غير مثقل باللحم واللحم كما قال

متى قد قد السيف لا متضائل * ولا رهل لباته وبآدله

قوله لباته اللبة لحم الثدى وقوله بآدله جمع بأدلة بالهمز بعد الباء وهى ما بين العنق الى المرفق اه

ولا نعني بالجمال ههنا ما يتعلق به شهوة الرجال والنساء فذلك انوثية وانما نعني به الهيئة التي لا تنبو الطباع عن النظر اليها وهو أدل شئ على فضيلة النفس لان نورها اذا أشرق تأدى الى البدن اشراقها وكل شخص فله حكمان احدهما من قبل جسمه وهو منظره والآخر من قبل نفسه وهو مخبره وكثيرا ما يتلازمان ولذلك فزع أصحاب الفراسة فى معرفة أحوال النفس أولا الى الهيئات البدنية حتى قال بعض الحكماء قل صورة حسنة يتبعها نفس رديئة فنقش مخواتيم مقروء من الطين وطلاقة الوجه عنوان ما فى النفس وليس فى الارض شئ الا ووجهه أحسن ما فيه قال النبي عليه الصلاة والسلام اطلبوا الحاجات من حسان الوجوه وقال عمر رضى الله عنه اذا بعثتم رسلا فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم فالوجه والعين يظهر فيهما آثار النفس كالمرأة يستدل بها عليها ولذلك يظهر فيهما أثر سرور النفس وحزنها ورضاها وسخطها ولذلك عبر بالوجه عن الجملة وعن رئيس القوم بفلان وجه القوم وعينهم حتى قال تعالى كل شئ هالك الا وجهه وكون الوجه المقبول فى دلالته على فضيلة النفس وان لم يكن حكما لازما فهو على الاعم والاكثر وحكى ان المأمون استعرض جيشا فمر به رجل قبيح الوجه فاستنطقه فرآه الكن فأمر باسقاطه وقال ان الروح اذا كانت ظاهرة كانت صباحة واذا كانت باطنة كانت فصاحة واراه لا ظاهر له ولا باطن وكفاك من البيان فى فضل كمال الجسم قول الله تعالى ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم وقال وزادكم فى الخلق بسطة وأما طول العمر فلولا لقل حظ الانسان من السعادات الدنيوية التي لولاها لما نيلت السعادة الاخروية والله ولى الفضل والاحسان وعليه المعول والتكلان

(الباب الثاني والعشرون مايتولد من الفضائل النفسية)

امهات الفضائل النفسية وان كن اربعا فلها بنات هن امهات لفضائل آخر وبيان ذلك ان العقل متى تقوى تولد من حسن نظره جودة الفكر وجودة الذكر ومن حسن فعله الفطنة وبزالة الرأى وتولد من اجتماع اربعتها جودة الفهم وجودة الحفظ والشجاعة متى تقوت تولد منها الجود فى حال النعمة والصبر فى حال المحنة والصبر يزيل الجزع ويورث الشهامة المختصة بالرجولية كما قال

خلقنا رجالا للتجلد والاسى * وتلك الغوانى للبكا والمآتم

والعفة اذا تقوت ولدت القناعة والقناعة تمنع عن الطمع فى مال غيره فولدت الامانة والعدالة اذا تقوت تولدت الرحمة والرحمة هى الاشفاق من أن يفوت ذا حق حقه فهى تولد الحلم والحلم يقتضى العفو فالانسانية والكرم يجمعهان هذه الفضائل وذلك ان الانسانية هى الفضائل النفسية المختصة بالانسان وبقدر مايكتسبه الانسان يستحقها وفيه تفاصيل كثيرة كما تقدم فى الفرق فيما بين الانسان والانسان فمنهم من قد ارتفع حتى لحق افق الاملاك فلو تصورنا ملكا جسميا لكان هو اياه لارتفاعه عن الانسانية الا بالصورة التخطيطية وعلى هذا قوله تعالى ان هم الا كالانعام بل هم أضل ومنهم من هوفى أوسط هذه فى درجة من درجات لها كثيرة ولهذا صح ان يقال فلان أكثر انسانية من فلان ومايختص به لفظ الانسانية فهى الاخلاق والافعال المحمودة فاما المذمومات من الافعال فتشارك الانسان فيها البهائم والشياطين أما المروة فلها اشتقاقان ففى احدهما مايقتضى ان تكون هى والانسانية متقاربتين وهو ان يجعل من قولهم مرؤ الطعام وأمرأه اذا تخصص المرئ لموافقة الطبع وكأنها اسم للاخلاق والافعال التى تقبلها النفوس السليمة فعلى هذا يكون اسما للافعال المستحسنة كالانسانية والثانى ان تكون من المرء فتجعل اسما للمحاسن التى يختص بها الرجل دون المرأة فتكون كالرجولية وذلك أخص من الانسانية

اذ

اذ الانسانية يشترك فيها الرجال والنساء والمروءة أخص فكثيرا ما يكون فضيلة للمرأة يكون رذيلة للرجل كالبله والخفة والجبن ولهذا قيل افضل اخلاق الرجل أرذل اخلاق النساء فالكيس والشجاعة والجود رذيلة لهن وقيل لمعاوية ما المروءة فقال اطعام الطعام وضرب الهام وقيل للأحنف فقال ان لا يفعل في السر ما يستحي منه في العلانية وقيل لآخر فقال جماعها في قول الله عز وجل ان الله يأمر بالعدل والاحسان وأما الكرم فاسم لجماعة الاخلاق والافعال المحمودة اذا ظهرت بالفعل والحرية مثله لكن يقال ذلك فيمن لا تستعبده المطامع والاغراض الدنيوية وذكر بعض الحكماء ان الحرية تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة كمن ينفق مالا في تجهيز جيش في سبيل الله تعالى أو يحمل حمالة برقابها دماء قبيلة فكل كرم حرية وليس كل حرية كرما وأيضا فالحرية تتعلق بالتلطف عن الاخذ وأكثر الكرم يتعلق بالانفاق أكثر ويضاد الكرم اللؤم والحرية العبودية أعني المذكورة في قول الشاعر

والعبد لا يطلب العلاء ولا * يعطيك شيأ الا ازدهبا

وكما ان الكرم اعم من الجود فاللؤم أعم من البخل ولا يدخل في الحرية والكرم النساء فانهن مستخدمات بل مستعبدات ولذلك روى لو أمر الله مخلوقا بعبادة مخلوق لأمر النساء بعبادة أزواجهن ان قيل ما حقيقة قول الله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم قيل لما كان الكرم اسما للافعال المحمودة التي تقدم ذكرها وهذه الافعال انما تكون فاضلة اذا كان عن علم وقصد بها أشرف الوجوه أي وجه الله تعالى وذلك هو التقوى فليس التقوى الا العلم وتحري الافعال المحمودة كان كل من اتقى أكرم والعزيز الذي يأبى تحمل المذلة واشتقاقه من العزاز كالمتطلف في الامتناع من تناول الشهوات المذلة وأصله من الظلف وهي الارض الصلبة وفرق بعض الحكماء بين العزيز والكريم فقال الكريم يأبى ان يعصى له والعزيز يأبى ان يعصى عليه والظرف اسم لحالة تجمع عامة الفضائل النفسية والبدنية والخارجة تشبيها بالظرف الذي هو الوعاء ولذلك قال اعرابي فلان حاضن الشرف وقعر الفضل ولكرمه واقعا على ذلك قيل لمن حصل له علم وشجاعة ظريف ولمن حسن لباسه وأثاثه وريا شه ظريف فالظرف أعم من الحرية والكرم وأما الفتوة

فسكالمروءة فانها اسم لما يختص به الفتى من الفضائل الانسانية لكن هي بالرجولية أشبه وقد استعارت الصوفية لفظ الفتوة للتصرف لكونها مشاركة له في جميع أفعالها الا في الغرض فان غرض الفتيان استجلاب محمدة الاقران وغرض الصوفية استجلاب محمدة الرحمن بل مجرد مرضاته تعالى وأما الحسب فقد يقال فيما يختص الانسان به فيعده من مآثره وقد يقال فيما يؤثر عن آبائه والشرف نحوه لكن أكثر ما يقال فيما يؤثر عن الآباء

(الباب التاسع والعشرون الفضائل التوفيقية)

التوفيق موافقة ارادة الانسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره وان كان في الاصل موضوعا على وجه يصح استعماله في السعادة والشقاوة فقد صار متعارفا في السعادة فقط والاتفاق مطاوعة التوفيق لكن قد يستعمل في السعادة والشقاوة جميعا فيقال اتفاق جيد واتفاق ردئ والتوفيق مما لا يستغني الانسان عنه في كل حال كما قيل لحكيم ما الذي لا يستغني عنه أحد في كل حال فقال التوفيق وأنشد

اذا لم يكن عون من الله للفتى * فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

فالسعادة التوفيقية هي الهداية والرشد والتسديد والتأييد فيجب ان يعلم ان لا سبيل لاحد الى شئ من الفضائل الا بهداية الله تعالى ورحمته فهو مبدأ الخيرات ومنتهاها كما قال الله تعالى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وخاطب فقال ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء وقال النبي صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى أي بهدايته قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدني الله برحمته أي بهدايته تنبيها انه لو توهمت رحمته مرتفعة ابتداء وانتهاء ما كان لنا سبيل الى ذلك وللهداية ثلاث منازل في الدنيا الاول تعريف طريق الخير والشر المشار اليهما بقوله تعالى وهديناه النجدين وقد خول الله تعالى الهدى كل مكلف بعضه بالعقل وبعضه بألسنة الرسل واياه عنى بقوله وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى والثاني ما يمده العبد حالا فحالا بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح واياه عنى بقوله والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم

وآتاهم تقواهم والثالث نور الولاية التي هي في أفق نور النبوة وإياه عنى بقوله تعالى قل ان هدى الله هو الهدى فأضاف ذلك الى لفظة الله تعظيما له ثم قال هو الهدى بجعله الهدى المطلق وبقوله يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا أي نورا يفرقون به بين الحق والباطل وكل ذلك تسمى النور والحياة نحو اومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا الآية وقال أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وبتحري هذه المنازل الثلاثة يتوصل الى الهداية الى الجنة المذكورة في قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والرشد عناية الهية تعين الانسان عند توجهه في أموره فتقويه على ما فيه اصلاحه وتفتره عما فيه فساده واكثر ما يكون ذلك من الباطن نحو قوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين وكثيرا ما يكون ذلك بتقوية العزم أو فسخه واليه توجه قوله تعالى واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه والتسديد ان يقوم ارادته وحركاته نحو الغرض المطلوب لتهجم عليه في أسرع مدة يمكن الوصول فيها اليه وهو المسؤل بقوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم والنصرة من الله تعالى معونة الانبياء والاولياء وصالحي العباد بما يؤدي الى صلاحهم عاجلا وآجلا وذلك يكون تارة من خارج بقبضه الله تعالى فيعينه وتارة من داخل بأن يقوي قلوب الاولياء أو يلقي رعبا في قلوب الاعداء وعلى ذلك قوله تعالى انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد وقوله ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وأما ما يختص بسعادة الدنيا ولا يعتبر فيه العاقبة فيقال لها الدولة وعلى هذا قوله تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس وقوله في وصف الفيء كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم والتأييد تقوية أمره من داخل بالبصيرة ومن خارج بقوة البطش ومن الاول قوله تعالى اذ أيدتك بروح القدس والعصمة فضل الهي يقوى به الانسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع له من باطنه وان لم يكن منعا محسوسا واياه عنى بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقد روي ان يوسف رأى صورة يعقوب عليهما السلام وهو عاض على ابهامه فأحجم وليس ذلك لمانع ينافي التكليف كما تصوره بعض المتكلمين فان ذلك تصور منه وتذكر لما كان قد

حذره منه وعلى هذا قال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ومن عصمته تعالى ان يكرر الوعيد على من يريد عصمته امثلا يغفل ساعة عن مراعات نفسه كقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين واعلم ان رشده تعالى للعبد وتسديده ونصرته وعصمته تكون بما يخوله من الفهم الثاقب والسمع الواعي والقلب المراعي وتقييض المعلم الناصح والرفيق الموافق وامداده من المال مالا تقعده به عن مغزاه قلته ولا تشغله عنه كثرته ومن العشيرة والعز ما يصونه عن سفه السفهاء وعن الغض منه من جهة الاغنياء وان خوله من كبر الهمة وقوة العزيمة ما يحفظه عن الاشياء الدنية والتأخر عن بلوغ كل منزلة سنية

(الباب الثلاثون في تلازم الفضائل النفسية بعضها بعضا)

العقل والعفة والشجاعة والجود والعدالة وسائر الفضائل تتلازم فان العقل اذا أشرق عقل صاحبه عن الاقدام على ما يورثه مذمة ويحمله على الاقدام على المخاوف التي تورثه المحمدة وعلى ان يتم تفضل ما في يده لمن يحتاج اليه وان يبذل لكل ذي حق حقه وذلك هو العفة والشجاعة والجود والعدالة وكذا اذا كان عدلا يحمله عدله على ترك تناول ما لا يجوز تناوله وان لا يحجم عما يلزمه الاقدام عليه وان لا يبخل بفضل ما في يده واذا كان شجاعا لا تقهره شهوته على تناول ما لا يجوز تناوله وعلى ظلم غيره ولا يخاف الفقر فيبخل ولهذا النظر جعل بعض الشعراء الشجاعة سماحة والسماحة شجاعة فقال

أيقنت ان من السماح شجاعة * تدعى وان من الشجاعة جودا

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم دفع الشهوة جهادا فقال جهادك هواك وجعلت العفة جودا فقيل الجود جودان جود بما في يدك وجود عما في يد غيرك وهو أعظمهما وهذه الفضائل اذا حصلت حصل بها الانسانية والحرية والكرم وعنها يتأصل الاسلام والايمان والتقوى والاخلاص

*(الباب

(الباب الحادى والثلاثون البواعث على فعل الخير وتحرى الفضائل)

البواعث على تحرى الخيرات الدنيوية ثلاث أدناها الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره والثانى رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه والثالث تحرى الخير وطلب الفضيلة فالاولى من مقتضى الشهوة وذلك من فعل العامة والثانية من مقتضى الحياء وهى من فعل السلاطين وكبار أبناء الدنيا والثالثة من مقتضى العقل وذلك من فعل الحكماء ولهذه المنازل الثلاث قيل خير ما اعطى الانسان عقل يردعه فان لم يكن فحياء يمنعه فان لم يكن فخوف يقمعه فان لم يكن فحال يستره فان لم يكن فصاعقة تحرقه تريح منه العباد والبلاد وكذا البواعث على الخيرات الاخروية ثلاث الاول الرغبة فى ثواب الله تعالى والخافة من عقابه وذلك منزلة العامة والثانى رجاء حمده ومخافة ذمه وذلك منزلة الصالحين والثالث طلب مرضاته تعالى فى التحريات وذلك منزلة النبيين والصديقين والشهداء وهى أعزها وجودا ولذلك قال بعضهم أفضل ما يتقرب به العبد الى الله تعالى ان يعلم انه لا يريد العبد من الدنيا والآخرة غيره قال الله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه وقيل لرابعة ألا تسألين الله تعالى فى دعائك الجنة فقالت الجار قبل الدار فبهذا النظر قال بعضهم من عبد الله تعالى بعوض فهو لئيم وقال بعض العلماء هذه المنازل الثلاثة منازل الظالم والمقتصد والسابق وأجدر أن تكون هذه المنازل الثلاثة ما روى عنه عليه الصلاة والسلام سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء فقد قال بعض العلماء مسائلة العلماء ترغبك من الله تعالى فى ثوابه وتخوفك من عقابه ومخالطة الحكماء تقربك من الحمد وتبعدك من الذم ومجالسة الكبراء تزهدك فيما عداه فضل البارى

(الباب الثانى والثلاثون الموانع من تحرى الفضائل)

وذلك ضربان قصور وتقصير فاما القصور فبأن لا تكون له المعانى العشرة التى

قدمناها ولا التمكن من اكتسابها أو يكون له ذلك ولكن يعوقه عن استعماله عائق مرضي أو شغل ضروري لعذر وحاجة الى السعي فيما يسد به جوعته و يستر به عورته وهما عدم الوسع المذكور في قوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها ودواء الامرين الفزع الى الله تعالى والتضرع اليه بان يجبر نقصه بتمام جوده وسعة رحمته وأما التقصير فاربعة أشياء الاول أن يكون انسانا لا يعرف الحق من الباطل ولا الجميل من القبيح فبقي غفلا فدواءه سهل وهو التعليم الصائب والثاني أن يكون قد عرف ذلك لكن لم يتعود فعل الصالح وزين له سوء عمله فرآه حسنا فتعاطاه وأمره أصعب من الاول لكن يمكن أن يقهر على العادة الجميلة حتى يتعودها وان كان قد قيل ترك العادة شديد والثالث ان يعتقد في الباطل والقبيح انه حق وجميل فتربى على ذلك ومداواة ذلك صعبة جدا فقد صار ممن طبع على قلبه اذا تنقش ينقش نحو يس كالكاغد كتب فيه ما يؤدي حذفه منه الى خرقه وفساده والرابع أن يكون مع جهله وتربيته على الاعتقاد الفاسد شريرا في نفسه يرى الخلاعة وقهر النفس فضيلة وذلك أصعب الوجوه والى نحوه قصد من قال من التهذيب تأديب الذيب

قوله المسخ هو ليتهذب وغسل المسح ليبيض فالاول من هؤلاء الاربعة يقال له الجاهل والثاني القطعة من يقال له الجاهل والضال والثالث يقال له جاهل وضال وفاسق والرابع الفضة اه يقال له جاهل وضال وفاسق وشرير

(الباب الثالث والثلاثون الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار عنها الى اقصى الرذائل)

للانسان في منازل الفضائل مرتقى صعب ومنحدر سهل وعلى الارتقاء فيها حث ربنا تبارك وتعالى بقوله وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة و بقوله فاستبقوا الخيرات ومدح قوما بقوله يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون وعن الانحدار منها نهى الله تعالى بقوله ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين و بقوله ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم وذم قوما شأنهم ذلك بقوله ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم و بقوله ان الذين كفروا وصدوا عن

سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيأ وسيحبط أعمالهم و بقوله ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيأ فان الآية تقتضي هذا المعنى وان كان ظاهرها يدل على الجهل الذي يورثه الهرم فالخيرات يترقى فيها فتبلغ الى أشرف المنازل بار بع درجات و ينحدر فتبلغ الى أرذل المنازل بار بع درجات أيضا فاما درجات الارتقاء فأولها أن يرتدع الانسان عن المأثم و يهجرها و يندم عليها و يعزم على ترك معاودتها وذلك أول درجة التائبين المطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وثانيها أن يقوم بالعبادات الموظفة عليه و يسارع فيها بقدر وسعه وذلك درجة الصالحين وثالثها ان يتحرى بعلمه الحقيق تعاطي الحسنات من غير تلفت منه الى الحظوظ ات يجاهد هواه وامانة شهواته وذلك منزلة الشهداء ورابعها أن يكون مع هذه الاحوال المتقدمة يرضى ظاهرا و باطنا بقضاء الله تعالى فلا ينازع تحت حكمه ولا يتسخط شيأ من أمره و يعلم ان الله تعالى أولى به من نفسه وذلك درجة الصديقين وهذه المنازل الاربعة المرادة بقوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا وأجدران تكون هذه المنازل الاربعة هي المأمور بها في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون واعلم ان منزلة الرضاء أشرف المنازل بعد النبوة فمن رضي عن الله عز وجل فقد رضي الله عنه لقوله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه فجعل أحد الرضائين مقرونا بالآخر فمن بلغ هذه المنازل عرف خساسة الدنيا واطلع على جنة المأوى وخطب مودة الملأ الاعلى وحظي بتحيتهم المعنية بقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وأما درجات الانحدار والارتداد عنها فأولاها الكسل عن تحري الخيرات وتورثه ذلك الزيغ المعنى بقوله فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وثانيها الغباوة وهي ترك النظر ونقض العمل فيورثه ذلك رينا على قلبه بقوله كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وثالثها القساوة وهو ان يرتكب الباطل و يرامي في صورة الحق و يذب عنه فيورثه ذلك قساوة قلب كما قال تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ورابعها الانهماك في الباطل وهو ان

يستحسنه فيحبه ويحسنه ويحبه فيورثه ذلك ختما على قلبه وأقفالا عليه كما قال تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة وكما قال أم على قلوب أقفالها والكسل سبب الغباوة والغباوة سبب الوقاحة والوقاحة سبب الانهماك كما ان الزيغ يوجب الرين والرين يوجب القساوة والقساوة توجب الختم والاقفال فحق الانسان ان يراعي نفسه في الابتداء ولا يرخص في ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك الى ارتكاب الكبائر كما قيل

ان الامور دقيقها * مما يهيج به العظيم

وقد قال الله تعالى فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين فدل ان قعودهم أول مرة أدى لهم الى أن صار محكوما عليهم انه لا يتأتى منهم الخروج معه صلى الله عليه وسلم بوجه

(الباب الرابع والثلاثون بيان عبادة الله تعالى في تهذيب الذين تردوا في الرزائل حتى فسدت أخلاقهم)

الناس متى تركوا تعاطي الاحسان والافضال وتحري العدالة فيما بينهم فلا يأتوا بها لا خلقا ولا تخلقا ولا رياء ولا سمعة ولا رهبة ولا رغبة فصاروا في تعاطي الشر سواء بسواء ثنيات كاسنان الحمار عدم فيهم الفضيلة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا فحينئذ ان بقي في نفوسهم أثر قبول الخير ان شاء الله تعالى فيهم من يهديهم باللسان والسيف المحق كبعثة النبي صلى الله عليه وسلم في العرب لما بقي فيهم من أثر الخير من تعظيم الشهر الحرام والبيت الحرام والوفاء بالذمام وان قل فيهم أثر قبول الخير سلط الله عليهم سيفا جائرا كما قال تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله ينتصف من أوليائه لأوليائه ومن أعدائه لأعدائه وعاملهم بما عامل به بني اسرائيل حيث سلط عليهم بخت نصر وقد ذكر ذلك في قوله تعالى فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد الآية وان عدم منهم أثر القبول بعث فيهم عذابا يفنيهم اما طوفانا أو جائحة أو نارا محرقة أو ريحا فيها عذاب أليم فيطهر عنهم البلاد

ويريح

ويريح منهم العباد كما صنع الله بعاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح وذلك كالارض اذا استولى عليها السوء لا بد من تسليط النار عليها حتى تعود بيضاء

(الباب الخامس والثلاثون أصناف الناس)

الناس ضربان خاص وعام فالخاص من قد تخصص من المعارف بالحقائق دون التقليدات ومن الاعمال ما يبلغ به الى جنة المأوى دون ما يقتصر به على الحياة الدنيا والعام اذا اعتبر بذلك فالذين يرضون من المعارف التقليدات ومن أكثر الاعمال بما يؤدي الى منفعة دنيوية واذا اعتبر بأمور الدنيا فالخاص ما يتخصص بأمور البلد بما ينحرم من افتقاده احدى السياسات المدنية والعام ما لا ينحرم بافتقاده شئ منها وهم من وجه آخر ثلاثة خاصة وعامة وأوساط والاوساط هم المسمون فى كلام العرب بالسوقة فالخاص هو الذي يسوس ولا يساس والعام هو الذي يساس ولا يسوس والوسط هو الذي يسوسه من فوقه وهو يسوس من دونه ومن وجه آخر ثلاثة أضرب أصحاب الشهوات وهممهم الجدة واليسار والاكل والشرب والبغال وأصحاب الكرامة والرياسة وهممهم المدح واستجلاب الصيت والمحمدة وأصحاب الحكمة وكل واحد منهم يستعظم من هو من جنسه ولهذا احتاج السلطان الى كل ذلك وتهنئته ليكون معظما عند كل ضرب من الجميع من الناس فيعظمه أصحاب الحكمة لحكمته وأصحاب الكرامة لكرامته والرياسة لرياسته وأصحاب الشهوات لماله وكثرة قنياته ومن وجه آخر ثلاثة أضرب ملكي وشيطاني وانسي فالملكي الذي يستعمل القوة العاقلة بقدر جهده وهم المؤمنون حقا والشيطاني الذي يستعمل القوة الشهوية من غير تلفت الى مقتضى العقل والانسي الذي خلط عملا صالحا وآخر سيأ وهم المذكورون فى قوله تعالى فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم وهو المؤمن والفاسق والكافر وهم المذكورون فى قوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون ومن وجه آخر ضربان أبرار وفجار فالابرار ثلاثة

أضرب ظالم ومقتصد وسابق وهم المذكورون فى قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية وهم أيضا أعنى الابرار ثلاثة أضرب أنبياء للشاهدة والهداية لقوله تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وحكماء وهم الاولياء للمراقبة والرعاية لقوله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون وعوام للمجاهدة والكفاية وهم المذكورون فى قوله تعالى يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم وهم أيضا ضربان عبد بالطبع وان كان ملكا وملك بالطبع وان كان عبدا مسترقا والملك من حصل الفضائل النفسية التى بها يصير الانسان بحيث يصح ان يوصف بانه ربانى والهى وملكى ويصح ان يكون خليفة الله فى أرضه والعبد من قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس ولا انتعش واذا شيك فلا انتقش وقال بعض الحكماء ما من انسان الا وفيه خلق من اخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات ليكون الانسان مشاركا لهما فى الجنسية وان كان مباينا لهما فى النوعية فمن الناس غشوم كالاسد وعابث كالذئب وخب كالثعلب وشره كالخنزير وجامع كالنمل ووقح كالذباب وبليد كالحمار وألوف كطير الوفا وصنع كالسلفة وأنف كالاسد والنمر وغيور كالديك وهاد كالحمام ومنهم حسن المنظر والمخبر كالاترج ومنهم بخلاف ذلك كالحنظل والبلوط ومنهم قبيح المنظر حسن المخبر كالجوز واللوز ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلى والمؤمن الخير هو فى الحيوانات كالنحل يأخذ أطايب الاشجار ولا يقطف ثمرا ولا يكسر شجرا ولا يؤذى بشرا ثم يعطى الناس ما يكثر نفعه ويحلو طعمه ويطيب ريحه وهو فى الاشجار كالاترج يطيب حملا ونورا وعودا وورقا والمنافق الشرير هو فى الحيوانات كالنمل والارضة وفى الاشجار كالكشوث فلا أصل له ولا ورق ولا اسم ولا ظل ولا زهر يفسد الثمار ويبس الاشجار وكالثمرة التى قل ورقها وكثر شوكها وصعب مرتقاها

(الفصل الثانى فى العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها)

(الباب الاول فضيلة العقل)

العقل